مقالع مصر ومعادنها

نظر في تركيب ارض مصر الجيولوجيّ للاب بطرس دي ڤراجيل اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٢ مقالع مصر في عهد اليونان والرومان

توالت الدول متعاقبةً على مصر حتى افضى الملك بعد استيلاء اسكندر ذي القرنين عليها الى بطليموس وخلفائهِ المنسوبين الى لاغوس ابي بطليموس (Lagides) فاصبح القسم الاسفل من وادي النيل مدَّة ثلاثة اجيال مقرًّا لدولة عظيمة فاقت جميع الدُّول حضارةً وغضارة تحت تدبير ملوك ستروا بحكمتهم وامتازوا بحسن سياستهم ولم تزل على ذلك حتى تقلَّص ظلُّها واستشرى فيها الفساد فصارت طعمةً للرومانيين. وسلك القياصرة مع المصريين سلوك البطالسة في مراعاتهم لدينهم وآدابهم وسائر عاداتهم ليوهموهم انهُ لم يطرأ شيء من التغيُّر على وطنيَّتهم

وقد تسابق المصريون في تشييد الهياكل والقصور الفخيمة أيَّام الدولتين اليونانيَّة فالرومانيَّة. وليست هذه الابنية دون الآثار الفرعونية عظمةً وجمالاً. منها «كشك جزيرة فيلة» ذو الاعمدة الانيقة المتوَّجة باكلَّة مزدهرة يقضي زوَّار مصر منهُ العجب. وهذا البناء شُيِّد على عهد طيبار يوس قيصر وهو غُفلٌ لا نقوش عليهِ ولا كتابات يشبهُ في شكلهِ هيكل اريختيون (Erechteion) في اثينة

وفي هذه الجزيرة وجد شمپوليون المسلَّة المرسوم عليها شعار كلاريترة الذي ارشدهُ الى قراءة الكتابات الهروغليفيَّة

واذا سرتَ الى الشمال عثرت على هيكل بديع بناهُ الملوك البطالسة في ادفو المعروفة في تواريخ اليونان والرومان باسم مدينة اپولون الكبرى. ومن اعتبر جودة صنعتهِ وتناسب اجزائهِ نظمهُ في عداد الابنية الحسنى المشيَّدة في أرقى القرون المصريَّة هندسةً وبراعةً. وهذا الاثر البديع تراكم عليهِ الرمل فصبر تحتهُ على بوائق الدهر الى ان اخرجهُ العلاَّمة الاثريُّ ماريت فوجدهُ سالماً صحيحاً كما في يوم تشييدهِ

وفي دندرة هيكل حاتور الذي يحتوي على تصاوير كلاريترة وقياصرة رومة من عهد اوغسطوس الى انطونينوس المعروف بالبارّ. وهندستهُ كهندسة الهياكل القديمة عليهِ

مسحةٌ من صناعة اليونان. وفي هذا الهيكل وُجدت كتابات عديدة ذات شأن خطير

ومن هياكل ذلك العهد هيكل مدينة بوزيقة على بحر القلزم وابنية الاسكندريَّة الشاهقة كمنارة بطليموس محبّ اخيه والهيكل القيصري (Césaréum) والمتحف وخزانة الكتب وهيكل سيرابيس الذي لم يغلبهُ في الحسن الّا بناء رومة المعروف بالكابيتول

١ (مقالع هذه الابنية) انَّ الموادّ المتخذة لابنية الدولتين اليونانيَّة والرومانيَّة على ضربين منها الحجارة العاديَّة التي كان يستخرجها البُناة في محل البناء. ومنها حجارة الزينة القابلة الصقل المستعملة للهياكل والقصور وكانت تُنقل من انحاء الدولة

والحجارة التي فضّلها ارباب البناء في ذلك العهد انَّما هي الحجارة الكلسيَّة الرمليَّة

ولمَّا شرعت الاسكندريَّة تترقّى في معارج الفلاح اضطرَّ اهلها الى اتخاذ مقالع احتفروها غربي المدينة فاستخرجوا منها الحجارة لابتناء بيوتهم وقصورهم ومرافقهم وعاد جمٌّ غفير من العملة الى مقالع طورة ومصارة لاستثمارها ولعلَّهم جعلوا مذ ذاك الحين يقتلعون الحجارة من وجه الارض وعدلوا عن تعدين المقالع التي حفرها القراعنة في بطن الجبال. ولذلك ترى حجارة اليونان والرومان دون حجارة قدماء المصريين جودةً وحسنًا يقتلعونها من طبقات تختلف قيمة في مرادّها. ولا غرو ان البناء كان ايضًا اقلّ كلفةً واسرع عملًا. وعادت في ذلك الزمن حياةٌ جديدة لمقالع جبل سلسلة بعد خمود حركتها مدَّةً طويلة فنُقلت منها الحجارة الرمليَّة التي بها بُنيت معظم هياكل الصعيد. ومن غريب الامور ان المهندسين المصريين عدلوا الى الحجارة الاجنبيَّة لانجاز بعض الاعمال الخاصَّة كالصفائح المفروشة بها الطرق العمومية

وكانت حجارة اسوان تُستحضر للابنية المحكمة البديعة. ومن يرى ما بقي منها حتى يومنا في انقاض ابنية اليونان والرومان استدلَّ على كثرة استعمالها

غير انَّ الرومان لم يكتفوا بما استثمرهُ البطالسة من المقالع لتشييد ابنيتهم الجباريَّة كالهياكل والقصور والملاعب والمراسح التي ابتنوها ليس في مصر فقط بل في كلّ انحاء المملكة لكنهم بحثوا على موارد جديدة تسهّل لهم نوال المرغوب

وكان القياصرة واعيان الدولة لا يرضون بما رضي به القراعنة قبلهم من الصوَّان المحبَّب الاسود او الورديّ ولا من الحجر البركانيّ الاصمّ ولا من الرخام بل طمعوا

في ما هو افخر من ذلك فحفروا مقلعاً من الرخام الابيض الشفّاف (albâtre) بقرب اسيوط واتخذوا مقالع أخرى على ضفّة النيل اليمنى لاستخراج الرخام الاخضر والديوريت (diorite) الفاخر والسماقي الراقي الالوان البديع العروق

ومن مقالع ذلك العهد مقالع الصوّان الخيّب والرخام التي امر كلاوديوس قيصر بفتحها في جبل كلاوديانوس المعروف اليوم بجبل فطيرة على شاطئ البحر الاحمر وفتح خلفاؤه من بعده مقالع أخرى للحجر السماقي الناعم الحبوب في جبل بُرفوريتس في شبه جزيرة سينا. وكثرت ثمّ المقالع الّا انّ اسماءها اختلفت ثم اختلطت حتى يتعذّر اليوم تعريف مواقعها

وقد ادّى حبُّ بعض المترين من الرومان للحجارة الغالية الثمن البديعة المنظر الى ان تحاملوا على الآثار القديمة فتلاعبوا بها واتّخذوها لمنافعهم الشخصيّة. فمن ذلك انّهم نقلوا النواويس المصريّة الى ايطالية فجعلوها مغاطس. وكذلك نُقلت مسلّات الفراعنة الى رومة وتوالت على بعضها القرون مهملةً الى ان اقامها الاحبار الرومانيّون ونصبوها فوق سوارٍ اهلة بها. فترى اليوم مسلّتي اوغسطوس اللتين جعلهما في الملعب الاكبر تزينان ساحة الشعب (Piazza di Popolo) ومكان معرض الجند (Monte Citorio) وترى مسلّتي كلاوديوس اللتين اقامها امام مشهد اوغسطوس قد نُصبتا الواحدة في معبد مريم الكبرى والثانية في مُنتي كاثالو. امّا المسلّة التي كان يعدّها قسطنطين لمدينة برزنطية ثم جعلها ابنهُ قُسطنسيوس في الملعب الاكبر فتزدان بها ساحة القديس بطرس نصبها هناك البابا سكستوس الخامس

ومن المسلّات المصريّة الباقية حتى الآن المسلّة التي تُرى على رَصَف نهر التَّيبر في لندن نُحتت بامر تحوتمس الثالث فجُعلت في عاصمة بلية. ثمّ نقلها بعدئذٍ بطلميوس محبّ اخيه الى الاسكندريّة ذكرًا لاختهِ ارسينوية. ولمّا بُني الهيكل المنسوب الى القيصر (Césareum) وضعها انطوان وكلاوپترة في الساحة التي تمتدّ امامهُ مع مسلّة أخرى تُرى اليوم في منتزه نيويرك الاوسط (Central Parc)

وبعض هذه المسلّات القديمة اتّخذها السَّلَف لأعمدتهم فنحتوها وابدلوا شكلها المربّع. والمرجّح انّ العمود الذي يُنسب الى بُمپيوس في الاسكندريّة المعروف في كتب العرب بعمود السواري كان في غابر الزمن مسلّة نُصب تذكارًا لديوكليسيانس

الملك الروماني وهو من حجر الصوّان الاحمر. اما الركائز التي تحتهُ فمقتلعة من بعض الهياكل القديمة وبينها حجرٌ وُسم عليهِ اسمُ سانوس الاوّل مع نقش صورتهِ

وهنا يحسن بنا ان نستلفت عقول القرّاء الى ملاحظةٍ سبق اليهِ المسيو دي روزيار (de Rozière) في كتاب وصف مصر (ج ١ ص ١٩) انَّ المباني الفخيمة المشيَّدة بالحجر الصوّان هي في مصر السُّفلى اكثر منها في الصعيد اعني انَّ عددها يزيد بقدر ابتعادها عن مقالعها ولذلك سببان: احدهما انتقال مركز الدولة الى شمالي مصر قريباً من بحر الروم فبُنيت الابنية الجليلة حيث كان تخت الملك والى ثمَّ نُقلت موادّ الآثار القديمة بعد خرابها او تدميرها. والسبب الآخر ان القدماء لمَّا رأوا ان المرادّ المقتلعة لا تؤثر في النظر بقرب مقالعها في اسوان او فيلة بين الجبال الصوّانيَّة الشبيهة بها كتأثيرها فيهِ بعيدًا عنها في بلاد تختلف عن هيئتها فضَّلوا اتّخاذها لابنية مصر السفلى ليظهر حسنها بالاختلاف على حدّ ما قيل:

ضدَّانِ لمَّا استجمعا حَسُنا والضدُّ يُظهر حسنَهُ الضِّدُّ

٢ (استثمار هذه المقالع) سبق ان الفراعنة كانوا يسخرون في اشغالهم اسرى الحرب ولم يأنفوا من تسخير رعاياهم في وقت الحاجة. وكلٌّ من طالع الاسفار المقدَّسة يعلم ما نال بني اسرائيل من المشاقّ في رقّ عبوديَّة مصر لمَّا قهرهم الفراعنة وكلَّفوهم بناء مدنهم ومبانيهم. ولم يكن اليونان والرومان اعظم شفقةً نحو العملة فكانوا يسخرون غالبًا عبيدهم لمباشرة هذه الاعمال الباهظة. الَّا انَّ العبيد مع كثرتهم لم يكفوا لابنية اليونان والرومان فكان ماوكهم يضطرُّون على العمل سَفَلة الشعب. ولمَّا فُتحت مقالع بحر التلزم في ايَّام القياصرة أُرسل لاستثمارها المجرمون المحكوم عليهم بالقتل فكانوا يكابدون في قطع رخامها مرَّ النكال. ثمَّ ثارت اضطهادات الرومان للنصرانيَّة فكان النصارى يقضون السنين في هذه المقالع موثرين العذاب على الكفر بالدين وربَّما كانوا يقضون نحبهم بين الحرّ في جبال تصهرها الشمس باشعَّتها النارية

وكان ماوك رومية على هذا المنوال لا يتكلَّفون الكُلَف الفادحة في دفع اجور العَمَلة فيغتنون باتعاب المنكوبين

وممَّا اختصَّ بهِ اليونان والرومان دون الفراعنة تجهيز العواميد. وقد اصطنعوا منها عددًا لا يفي بهِ احصاء. فكانوا يزينون بها قصورهم ومصايفهم واروقتهم ومعابدهم

ومنتزهاتهم العموميَّة . وكثيرًا ما كانوا ينقرون هذه الاعمدة وينقشون فيهـا النقوش البديعة

وكانت طريقتهم في قطع الحجارة الضخمة وتجر الصوَّان الحبَب كطريقة قدماء المصريين يثقبون في الحجر الاصمّ ثقوبًا متَّسعة بالمنحت والمطرقة ثم يجعلون فيها سَفَن الخشب او المعدن فيقطعونها الواحًا

اما الاعمدة فكانوا يستحضرونها على نوع غاية في البساطة . فانَّ من زار هـذه المقالع يلحظ فيها كلها اعمدةً لم يُنحَت منها الَّا نصف دائرتها وذلك على طول العمود المقصود نحتهُ . وهذا بلا شكّ دليلٌ على انَّ القدماء في قطع هذه العواميد كانوا يجرون على نمط واحد وذلك انهم كانوا اذا عيَّنوا قياس العمود في طوله وقطر دائرته يحزُّونهُ حزوزًا بليغة في طرفيهِ ثم ينقرونهُ نقرًا على طوله او يجعلون ثقوبًا ليدخلوا فيها السَّفن فيضحي قسم الصخر المنفصل عن الجبل بقوَّة السَّفن متقعِّرًا اما الصخر الملتصق فيكون محدَّبًا مستديرًا على هيئة نصف الدائرة . وهذا الامر مع سذاجتهِ قريبٌ للفهم لانَّ القطعة المنفصلة بقوَّة السَّفن كانت اذا بلغت الطرف الاسفل عند الحزّ لا يمكنها ان تتجاوز هذا الخطّ عموديًّا فتميل بسرعة الى الجانب الخارجيّ تابعةً خطًّا متحدِّبًا في القسم الباقي ومتقعِّرًا في القسم المنفصل (١

وان سألت الآن عن الوسائط التي جرى عليها الرومان واليونان لنقل هذه الاعمدة الثقيلة والمسلَّات العظيمة اجبنا انَّ طرائقهم في النَّقـل تشبه الطرائق المصريَّة في الغالب . فان المسلَّات المجلوبة من الصعيد الى الاسكندريَّة ورومية أقلَّتها مراكب أُعدَّت لهذه الغاية . وقد اسهب پلينيوس في وصفهِ نقل احدى المسلَّات على طوفٍ اتَّخذهُ المهندس ساتوروس من مركبين جمع بينهما وحفر ترعةً في النيل فاجرى الطوف الى المقلع ليتلقَّى المسلَّة والمؤرخ المذكور يزعم انَّ ساتوروس ابتدع ذلك وفي الحقيقة كان قد سبقهُ الى هذا الامر قدماء المصريين كما رأينا . واخبر ايضًا ان المراكب التي شُحنت عليها المسلات الى ايطالية كانت تفوق بكبرها كلَّ السفن المعروفة . ولمَّا امر كاليغولا بنقل مسلَّة أُخرى الى رومية رأى ان يتَّخذ المركب الذي نقلها كسور يمنع بهِ مرفأ اوستية فغرَّقهُ في البحر وجعلهُ كشبه جزيرة بين طرفي المرفإ ولم يترك من الجانبين سوى مدخل

(١ راجع كتاب وصف مصر De Rozière : *Description de l'Egypte*, II,10.

ضيّق تحجزهُ سلسلة من حديد . وفوق هذه الجزيرة الصناعية بُنيت منارة كمنارة الاسكندريّة (١

وقد انشأ الرومان اربع طرق واسعة بين سواحل البحر الاحمر والصحراء العربيّة عزّزوها بالخافر وحفروا لها صهاريج للاستقاء . وثلث منها كانت تبتدئ في جوار مدينة قُفط وتسير الى انحاء مختلفة . فالطريق الاولى وهي اكثرها ميلًا الى الشمال كانت تمرّ بمقالع الرخام في جبل كلوديانس فتسير الى محطّة نبع طرايانس ومنهم الى جبل دخان ومقالع الرخام السماقي حيثُ بُني هيكل على عهد طرايانس لم يتمّ بناؤهُ وبقيت اطلالهُ حتى اليوم وهناك ايضًا انقاض ابنية أُخرى وحوضان للماء . وكانت هذه الطريق تنتهي في الدرجة ٢٧° من العرض عند نوجوس هرموس

والطريق الثانية كانت بعد خروجها من قفط تمرّ بهدروما (Hydreuma) المعروفة اليوم بقصر البنات . وكان ثمّ حصنٌ مربّع طولهُ ٣٨ مترًا و ٣١ س في مثلهِ عرضًا وعلوّهُ مترانِ وهو مبني بنحيت الحجارة الرمليّة وفي وسطهِ ساحة على جوانبها عشرون حجرة . ثمّ تسير الطريق الى وادي حمّامات المسمّى قديمًا وادي روحانو وهناك بقايا اسوار رومانية وصهاريج . وآخر هذه الطريق عند القُصير (Leucos Lenien) في الدرجة ٢٦°

اما الطريق الثالثة فكانت تسير من قفط الى مدينة برنيقة التي ابتناها بطليموس محبّ اخيهِ سنة ٢٧٥ ق م ولبرنيقة هذه شأن عظيم في التاريخ مدّة نحو ٥٠٠ سنة . وقد وصف پلينيوس الطبيعي هذه الطريق وصفًا مدقّقًا وكذلك عرّفها انطونينوس الشهيد في رحلتهِ وطولها ٢٥٨ ميلًا (٥٨٠ كيلومترًا) وعلى ممرّها صهاريج عديدة ومدن عامرة . الّا انّ المقالع الواقعة على سير هذه الطريق لم يستثمرها اليونان والرومان وانّما اتّخذوها ليسيروا الى معادن الزمرّد التي سيأتي عنها الكلام وللتجارة مع الهند الشرقيّة

وقد ورد في آثار برنيقة غير مرّة اسم الملكين طيبازيوس وادريانوس والقيصر ادريانوس هو الذي فتح طريقًا بين انطينوية وبحر القلزم وكانت ثمّت تسير مع البحر وتنتهي الى برنيقة جنوبًا

وعلى هذه الطرق الاربع كانت تسير العجلات الرومانيّة الصلبة الضخمة ناقلة الى

(١ راجع Boissier : *Promenades archéologiques*, 7° ed. p. 292.

مرافئ بحر القلزم تجارة المقالع. وكانت السفن تتقلها الى ان تبلغ ترعة داريوس الواصلة بين النيل وبحر القلزم وكانت هذه الترعة انتهت على عهد البطالسة ولمَّا اتمَّ طرايانس ترعتهُ المنسوبة اليهِ (Amnis Trajanus) بين منف وسويس صار قسمٌ من مشحونات البحر الاحمر يجتاز بها

وكان اليونان والرومان يحسنون عمل التجارة المصريَّة فيصطنعون منها آثارًا عجيبة كالآنية والتماثيل والنقوش. الَّا انَّ صنَّاعهم لسرعتهم في العمل لم يبلغوا ما بلغهُ قدماء المصريين من حيث تقليد الطبيعة فانَّ هؤلاء اصابوا قصب السبق في هذا المضمار فانطقوا الحجارة الصمَّاء. ولم يجر اليونان والرومان الَّا على آثارهم دون ان يلحقوا شأوهم. والبعض منهم خلطوا بين الطرز المصريّ والطرز اليوناني فلم يحسنوها جميعاً

(ستأتي البقيَّة)

إطلاع الحضر على أطلاع النور

لحضرة الكاتب العالم والباحث المتفنن الاب انستاس الكرملي

(تابع لما سبق)

ومما قد اشتهر بهِ النور الاوغاد انَّ منهم يخرج أغلب الشعَّارين (١ والشعَّارات وهي ادلُّ عنوان على فساد القوم الذي يخرج منهم اناس هذه صناعتهم. ولا يظنَّ ظانٌّ ان الرقص والغناء شان الكاولية الذين في العراق فقط بل هذا امرهم في جميع بلاد خلق الله كما تحققتهُ بنفسي في البلاد التي وطئتها وكما وقفتُ عليهِ ايضاً في ما كتبهُ الافرنج في هذا الصدد فقد ذكر احدهم ما نصُّهُ بالحرف المعرَّب: وكلا الفريقين من ذكور واناث يُؤنس الشعب بالتطريب والغناء. ويذهب اجواق مغنّيهم راجلين الى بطرسبرج فيُستقبلون فيها احسن استقبال. وكانَّ اناشيدهم الوطنيَّة قد قُدِّمت من سير اناشيد

١) الشعَّار ومؤنثهُ الشعَّارة عند العراقيين الرقَّاص والرقَّاصة بحركات مخالفة للاداب. واللفظة قديمة لعلَّها من عهد الملقاء والكلمة مشتقة من «شَعَرَ» اي قال الشعر لان الشعَّارين كانوا في الاصل ينشدون الاشعار ويرقصون ... كما يدلهُ البعض الى يومنا هذا. ثم ذهب عنهم الشعر وبقي فيهم الرقص فاصبح المغنى رقَّاصاً في الاغلب. ويقابل الشعَّار والشعَّارة القلَّاس والقلَّاسة باللغة الفصحى. واسم الشعَّارة عند الافرنج bayadère او almée وهذه مأخوذة من العربية «عالمة» اي عالمة بالرقص والغناء